الفصل الرابع

تمزق العرب وتشرذمهم

obeikandl.com

obeikandl.com

طالما كان العرب- ولا يزالون - طرفاً مفعولاً به سلبياً وفق نظرية المؤامرات الغربية. ولكن الأدهى والأمر أن العرب ظلوا يستمرئون القيام بدور الضحية، ويتفننون فى إظهار مدى عجزهم وقصور همتهم عن القيام بمشاركة فعلية فى تحريك ودفع الأحداث التى لم تتجه قط تجاه مصالحهم.

وهنا تجدر الإشارة إلى أن محاولات الاستعمار الغربى لتمزيق وتفتيت الوطن العربى وتقطيع أوصاله حتى يتحول إلى لقيمات سائغة يسهل هضمها كانت قد بدأت منذ عقود طويلة؛ خاصة مع انهيار الامبراطورية العثمانية وهزيمته فى الحرب العالمية الأولى؛ حيث كانت الدول الاستعمارية الغربية ممثلة فى (إنجلترا وفرنسا) - بعد انسحاب روسيا من الحرب بعد قيام الثورة البلشفية سنة ١٩١٧ - بصدد وضع اتفاقية «(سايكس - بيكو (١٩١٦)»؛ لتقسيم غنائم الحرب فيما بينها، خاصة فيما يتعلق منها بأملاك الإمبراطورية العثمانية، والتى كان من بينها - بالطبع - الدول العربية؛ ليكتشف العرب الخدعة الكبرى التى تعرضوا لها بعد أن اكتشفوا أن أراضيهم قد تحولت إلى مستعمرات غربية كان النصيب الأكبر منها لبريطانيا وفرنسا.

هذا، وقد عمد هؤلاء المستعمرون إلى تقطيع الوطن العربى بصورة ممنهجة يصعب معها قيام كيان عربى متحد ومستقل؛ للقضاء على فكرة الوحدة والقومية العربية .

وذلك عبر ابتداع هذا النظام الاستعمارى لمجموعة من الإجراءات تمثل أهمها فى:

١- «قسم الاستعمار الوطن العربى إلى أجزاء منفصلة، وأقام الحواجز الجمركية بين هذه الأجزاء فقضى على حرية الانتقال، وحرية الاتصال بين العرب».

٢- «وأثار الاستعمار النعرات المحلية للقضاء على فكرة الوحدة والقومية العربية، فأثار النزعة الفرعونية فى مصر، والنزعة الفينيقية فى لبنان، وسمى العرب بأسماء مختلفة فى الأجزاء المختلفة، فهم عراقيون وسوريون ولبنانيون وفلسطينيون وسودانيون».

٣- «خلق الجنسيات المتعددة من الجنسية العربية الواحدة بل عمل أحياناً على إخراج بعض الشعوب العربية عن إطار القومية، فعمل على فرنسة الجزائر، وادعى أنها جزء من الوطن الفرنسى، وشجع الجزائرين على اكتساب الجنسية

الفرنسية عن طريق التلويح بالامتيازات الاجتماعية والطبقية».

٤- «أثار الاستعمار روح العداء الطائفى بين الأديان والمذاهب فى الوطن العربى، فعمل على التفريق بين الدروز والموارنة فى لبنان، وبين المسلمين والأقباط فى مصر، وبين الشيعة والسنيين فى العراق»[(١)].

٥- «عمل الاستعمار على تعدد النظم السياسية والحكومية والاقتصادية، وتعدد القوانين فى الأقطار العربية»[(٢)].

٦- «كما خلق الاستعمار أسر ذات أطماع فى الحكم وألهاها بعروش وهمية، وبذلك أوجد مصالح أسرية وعصبيات سببت نوعاً من التفكك فى وحدة العرب، وشجعت النزعات العصبية والتنافس المحلى»[(٣)].

والحق أن هذا الاستعمار الغربى قد نجح فى إحداث الفرقة والتشرذم بين أبناء الوطن العربى إلى حد بعيد؛ فحتى بعد زوال الاستعمار، وحصول العديد من الدول العربية على استقلالها – خاصة خلال النصف الثانى من القرن العشرين – لم تتمكن تلك الدول من التخلص من آثار هذه المؤامرات التى حيكت لهم منذ عهد بعيد. وليس أدل على ذلك من أنه إلى الآن – وعلى الرغم من كل النداءات المخلصة التى كانت تدعو بإلحاح إلى ضرورة الوحدة بين أطراف الوطن العربى الواحد – لم تنجح أى دولة عربية فى عقد وحدة متزنة دائمة مع دولة عربية أخرى اللهم إلى بعض اتفاقيات صورية، ومواقف آنية لا تعنى فى أساسها الكثير.

وهذا يعنى أن تقسيم الوطن العربى لم يتكرس على المستوى الجغرافى فقط ولكنه امتد كذلك إلى أذهان معظم الحكام العرب، وكثير من عامة أبناء الوطن العربى كذلك.

وقد ظهرت صور هذا الانقسام، وآثاره إلى ذروتها خلال النصف الثانى من القرن العشرين. وقد تمثل ذلك فى مجموعة من المنازعات والخلافات التى وصلت فى كثير من الأحيان إلى حد الاقتتال والحروب بين أبناء الوطن العربى الواحد. ولعل من أبرز

(١) التاريخ للثانوية العامة – حقوق الطبع محفوظة للوزارة – طبعة ٢٠٠٠ – ٢٠٠١ – ص٢٢٦.

(٢) المرجع السابق نفسه – الصفحة نفسها.

(٣) المرجع السابق نفسه – ص٢٢٧.

تلك الأحداث أحداث أيلول الأسود الذى وجهت فيه القوات المسلحة الأردنية نيرانها إلى المقاومة الفلسطينية عام ١٩٧٠م، والحرب الأهلية اللبنانية عام ١٩٧٥، وغير ذلك من الأحداث المأساوية الخطيرة التى توجت فى النهاية باجتياح العراق للكويت عام ١٩٩٠. وهى الحرب التى تركت آثارها الفادحة على أرجاء الوطن العربى كافة .

وما من شك فى أن اختلاف العرب، وتنازعهم على هذا النحو قد أضعف من موقفهم كثيراً فى المطالبة بحقوقهم المشروعة، واسترداد أرضهم المغتصبة؛ ولذلك فقد رأى الكثير من الشعراء المصريين المعاصرين أن تشتت الموقف العربى، وتمزقه يعد تضييعاً مباشراً للحقوق العربية، وفقداناً للأمل فى إحداث أى إنجازات مرتقبة على أرض الواقع. ومن الطبيعى أن يخلق هذا التصور لدى هؤلاء الشعراء الشعور بالإحباط، وأن يتسرب هذا الشعور إلى نفوسهم، ويسرى فى قصائدهم حاداً وطاغياً .

وقد كان الشاعر (محمد التهامى) أحد أهم الشعراء الذين آمنوا بضرورة تحقيق الوحدة العربية، وقد صاغ قصائد عديدة تغنى فيها بالأمل فى تلك الوحدة، داعياً إلى ضرورة التكاتف والتساند والتعاون بين أبناء الوطن العربى، وقد ساق من الحجج ما يؤدى فى النهاية إلى تحقيق تلك الوحدة، ومحذراً فى الوقت ذاته من مغبة التشرذم والاختلاف الذى لن يجنى منه العرب غير الضعف والذلة والهوان.

والأمثلة التى تبرهن على ذلك من شعر هذا الشاعر عديدة ومتنوعة منها – على سبيل المثال لا الحصر – قوله:

«هذا السبيل إلى الخلاص لأمة ... لا شىء ينقذها بدون الوحدة
يا ويل من خانوا ومن قد هادنوا ... والواقفين على دروب الحيرة
هذا التمزق قد أضاع شعوبهم ... فى عالم لا وزن فيه لقلة
سيسوقهم سوق الغبار أمامه ... حتى يواريهم هناك بحفرة
ويسجل التاريخ عن أوطانهم ... فيقول: قد كانوا هناك وكانت»[1]

وفى ثنايا ذلك لا ينسى الشاعر أن يشير إلى المكائد والدسائس التى تحاك لإعاقة تحقيق الوحدة بين العرب:

(١) الأعمال الشعرية الكاملة – محمد التهامى – ١/ ٣٢١ الهيئة المصرية العامة للكتاب – ٢٠٠١ .

«نحن العشيرة قد عزت وشائجنا ... طول الزمان وعشنا الدهر جيرانا
يا إخوة العرب، قالوا: إننا دول ... ونحن قد صاغنا الرحمن إخوانا
قالوا: الحدود على الآفاق تفصلنا ... يا إخوة النيل.. ليت الحد ما كانا
قالوا: الأصول، فقلت: القرية اكتملت ... فسائلوا العرب.. عدناناً وغسانا
يا إخوة القلب جدوا فى تحالفكم ... وأيدوه ويكفى القلب ما عانى
مدوا إلينا يديكم وهى حانية ... إنا بسطنا قلوباً من حنايانا
ضموا القلوب على حق ومصلحة ... وضاعفوها بين الإيمان إيماناً
بين الفرات وبين النيل رابطة ... يوصى الحجاز بها فى الحب لبنانا
فوحدوها صفوفاً وارفعوا علماً ... بين الأهلة فيه ضم صلبانا»(1)

هكذا ينفذ الشاعر من تفنيده المزاعم والافتراءات التى روجها مثبطو الهمم، ومعارضو تلك الوحدة إلى دعوته المتلهفة؛ لتحقيق الوحدة بين الدول العربية التى يوجد بينها من المصالح، ومن الوشائج المشتبكة ما هو أعمق بكثير مما يوجد بينها من التعارض والاختلاف. لذلك كان من المبرر أن يدعو الشاعر بكل صدق وعزيمة هؤلاء العرب إلى الاعتصام بحبل الله، وعدم التفرق شيعاً متباعدة؛ حتى يستحقوا نصره وتأييده- عز وجل-:

«فتوحدوا فى الله يحمى صفكم ... ويرد عنكم صولة المستبعد
ولا ترهبوا أعوانه وسلاحه ... مهما أتى من مبرق أو مرعد
فالله فوق العالمين جلاله ... سبحانه من قاهر متفرد
يحمى العباد إذا توحد جمعهم ... فى عصبة ويد تشد على يد»(2)

إن هذا الشاعر لا يمل من تبيان الروابط المشتركة التى تجمع بين دول الوطن العربى الواحد، وهو ما يمكنها من تخطى كل العوائق والسدود التى تقف فى سبيل تحقيق الوحدة والتكاتف فيما بينها:

«بنى العروبة نحن الكل وحدنا ... ماض عزيز ويوم حافل وغد

(1) السابق – ص٤٣٣، ٤٣٤.
(2) الأعمال الشعرية الكاملة- محمد التهامى- ٢/ ٥٢٤ -الهيئة المصرية العامة للكتاب – ٢٠٠١.

obeikandl.com

«بغداد» إن مسها وجد وأرقها
فنحن الألى نشقى بما تجد

«عمان» إن عز فيها بعض ما طلبت
فمن عزيز دمانا الغوث والمدد

وتلك «تونس» نادت فاستجيب لها
يفديك «تونس» منا المال والولد»

- «وفى «الجزائر» أشلاء لنا شهدت
هل بعد قول شهيد الحق من شهدوا

إنا بنى العرب أقصانا وأقربنا
كل لكل على أحداثها سند

هل بعد هذا عن التوحيد يصرفنا
دس يسير به فى القوم من فسدوا؟[1]

ولكن يبدو أن هؤلاء المفسدين سوف تسرى دسائسهم ومكائدهم مسرى النار فى الهشيم، وسيجدون لهم فى جسد الأمة العربية مرتعاً خصباً، ومجالاً واسعاً؛ لإحداث الفرقة والتشرذم والاختلاف فيما بينهم؛ يدل على ذلك هذه القصيدة نفسها – سالفة الذكر – التى صاغها الشاعر قبيل وقوع الانفصال بين (مصر وسوريا) عام ١٩٦١. وكأن الشاعر كان يتنبأ بوقوع هذا الانفصال الذى استبقه الشاعر بالتحذير منه؛ ولذلك يعلق على عنوان تلك القصيدة بقوله- نثيراً-: «ألقيت فى مهرجان الشعر الثالث بدمشق فى سبتمبر ١٩٦١ بعد معارضة شديدة من لجنة المهرجان والإصرار على تعديل بعض أبياتها وتأجيلها إلى آخر يوم فى المهرجان، بسبب أنها كانت تتنبأ بالانفصال الذى وقع بعد المهرجان مباشرة»[2].

وقد جاء فى هذه القصيدة أبيات شعرية تحمل هذا التحذير:

-«قل للذى عن ظلال الأهل يبتعد
باب العروبة مفتوح لمن يفد»

- «فلا تطيعوا الألى ضلت مقاصدهم
ولا تطيعوا الألى تشقيهم العقد

ولا تطيعوا الألى باعوا نفوسهم
ولا تطيعوا الأولى من جهلهم حقدوا

ولا تطيعوا الألى أهواؤهم حكمت
فسايروها ولو يستعمر البلد

عودوا إلى عمق الأعماق فى دمكم
تلقوا عروبتكم فى الدم تتقد»[3]

ويعضد الشاعر تحذيراته تلك بذكره فلسطين؛ شاهد عيان تشهد بخطورة

(١) الأعمال الشعرية الكاملة – محمد التهامى ١/ ٣٤٤، ٣٤٥.
(٢) المصدر السابق – هامش الصفحة – رقم ٣٤٢.
(٣) المصدر السابق – ص٣٤٢، ٣٤٤.

الأوضاع التى ترتبت على تفرق العرب، وعدم توحيد صفوفهم، وتنظيم جهودهم:

«لـو يشـعرون بـما جرتـه فـرقتهم؟ لـو يشـعرون لـما قـرت لهـم كبـد
لو يـذكرون «فلسـطين» التـى ذهبـت؟ لـو يـذكرون لـولى الصـبر والجلـد
الأهـل فى دارهـم بـاتوا علـى دعـة وأصـبح الصـبح لا أهـل ولا بلـد
المـوت والـذل والحرمـان طـاردهم سيان مـن مـات منهم والألى طـردوا
بـل كـان فى المـوت إنقـاذ لـوجههم وعاصـم لهـم مـن هـول مـا شـهدوا
بعـد النعـيم وعـز العـيش قـد طلبـوا ذل الكفاف وحتـى ذاك مـا وجـدوا»[1]

لكن نداءات الشاعر المتلهفة، ودعواته المستميتة، وتحذيراته المتواترة كلها لم تجد نفعاً؛ فقد تم الانفصال بين (مصر وسوريا)، وقد «أوقع هذا الانفصال فى نفوس العرب، لا فى مصر وسوريا وحدهما، بل فى الوطن العربى كله، أوقع ألماً ومرارة لا حد لهما، بل أحدث نوعاً من التخلخل والفراغ النفسى القاتل»[2].

لذلك كان من الطبعى أن يتسرب الشعور بالإحباط إلى نفس هذا الشاعر، وخاصة بعد أن رأى نفسه هو وغيره من أبناء العرب الذين آمنوا دائماً بضرورة تحقيق الوحدة بين العرب – فى وضع مكشوف للعدو يستطيع أن ينفذ منه من أى اتجاه، وفى أى وقت شاء؛ للعبث بأمن الشعوب العربية، ومقدراتها. يقول الشاعر فى قصيدته: «عار الانفصال سنة ١٩٦١»-:

«يـا ويلهـم خنقـوا ضـياء حياتنـا فهـوت إلـى جـوف التـراب الأنجـم
هـزوا جـدار العـرب خلـف ظهورنـا فـإذا بحصـن الآمنـين يهـدم
كشـفوا غطـاء الأمـن فـوق سمائنا فتمكنـت منـا النسـور الحـوم
قـد صـيرونا للأعـادى مضـغة تجـرى بأنيـاب الـذئاب وتهضـم
وبـدت مخازينـا تفـزع يومنـا وبلادنـا بـين الغنـائم تقسـم
كتبـوا بتـاريخ العروبـة لعنـة يرمـى بهـا الجيـل التعـس ويوصـم»[3]

(١) المصدر السابق نفسه – ص٣٤٥، ٣٤٦ .
(٢) الشعر فى إطار العصر الثورى – د/ عز الدين إسماعيل – ص٧٢ .
(٣) الأعمال الشعرية الكاملة – محمد التهامى – ١/ ٣٥٠ .

إنه الشعور بالإحباط قد بدأ يظهر على هذا الشاعر الذى رأى هذا الوضع العربى المتردى المهترئ يبرز مخازى عديدة ستمتد آثارها الفاجعة إلى جيله والأجيال القادمة من أبناء العرب الذين سيعجزون عن تفسير ما الذى أوصل أمتهم إلى هذا الحد من التردى والضعف؟ يقول:

«بتنا نعيش حكاية لو صاغها التاريخ ... عن أيامنا لا تفهم...
ماذا يقول إذا انطوت صفحاتنا ... وتتابعت أجيالنا تستفهم
أتراه يرحمنا ويغفر عارنا ... ويرق لما عذرنا يتكلم؟
أم إنه الحق الذى ناموسه ... إن الحقيقة مرهما لا يرحم
أيقول: كنا فى كريم ديارنا ... والخير يجرى تحتنا لا نطعم؟
أيقول: كنا نستسيغ حياتنا ... والعيش فى فمنا هنالك علقم؟
أيقول: كنا لا نحرك ساكناً ... والحق فى يدنا يسام ويهضم؟
أيقول: كنا فى الحشود كثيرة ... وأمام أجبن كل خلق نهزم؟
أيقول: هانت أرضنا فإذا بها ... للتائهين بكل أرض مغنم؟
أيقول: إنا قد تركنا أرضنا ... تبكى جحود الهاربين وتلطم؟»
- «إنا نعيش مرارة لو ذاقها ... جبل فإن صخوره تتحطم
نشقى بها، ياليتنا من مرها ... والهول فى تعذيبها نتعلم»[1]

ولكن العرب لم يتعلموا من أخطائهم؛ فقد توالت الخلافات التى بثت روح الفرقة والتشرذم بين الدول العربية. وهو ما ألجأ الشاعر المحبط إلى مجموعة من التساؤلات التى يحار هو الآخر فى تبرير أسبابها التى استعصت على التحليل أو الفهم:

«ماذا أقول إذا ما قام يسألنى ... هذا البرىء، ويعلو بيننا الجدل؟
ولا يدير لسانى فى تلعثمه ... شيئاً يفيد، وقد أعيتنى الحيل
أأدعى: أننى والحرب فى وطنى ... ما كان لى ناقة فيها ولا جمل؟
أأدعى: أننى والناس فى بلدى ... كنا حيارى، وقد ضلت بنا السبل؟
أم أدعى: أننا والأمر فى يدنا ... حقا غفلنا، وويل للألى غفلوا؟

(١) المصدر السابق – ص٣٥١، ٣٥٢.

obeikandl.com

أم أدعى: أننا والنار عالقة بالدار ... كنا بصحن الدار نقتتل؟»[1]

حددت تساؤلات الشاعر مواطن الداء؛ فالاقتتال الداخلى، والمنازعات التى تنشب من حين لآخر بين أبناء الوطن العربى تؤدى إلى إضعاف الصف العربى. وهو ما يؤدى إلى ضياع الحقوق، وذهابها إلى غير عودة طالما ظل حال العرب على هذا النحو من التشرذم والاختلاف. وهو الأمر الذى سيؤدى إلى فتح الباب على مصراعيه لاجتراء العدو على أراضى العرب واغتصابها من بين أيديهم قطعة قطعة:

«قد عربد الطوفان فوق جدارنا ... وأتى يفزعنا بشر محدق
يجتاح جدران العروبة كلها ... ويعمم الطوفان غير مفرق
إن ضاع منا اليوم شبر واحد ... فغدا يضيع من العروبة ما بقى»[2]

ولكن تحذيرات الشاعر، ونداءاته كانت تذهب أدراج الرياح بلا صدى، فما من مجيب أو معتبر بين هؤلاء العرب المتنازعين المتناحرين فيما بينهم. لذا أعلن الشاعر عن شعوره بالإحباط لما آلت إليه أحوال هؤلاء المسئولين من حكام العرب الذين انحدروا بحال الأمة العربية إلى هذا الدرك المتردى الذى أورث أجيال العرب القائمة وسيورث أجيالهم الآتية الخزى والمهانة. وهى أحاسيس ستولد بالضرورة رؤية ضبابية قاتمة يغلفها شعور تام باليأس والإحباط، وتفتقد بالأساس إلى أى بارقة أمل:

«وإن تنادى ذوو الأرحام تمطرهم ... فى زحمة الإفك من قاموسنا علل
إن جاء أعداؤنا بالنار تأكلنا ... رحنا نضيف إليها وهى تشتعل
هم يأكلون حمانا فى مخططهم ... ونحن نشوى لهم كل الذى أكلوا
ننقب الأرض عن عار يجللنا ... ويدعى البعض منا أنها حلل
هذى الحقيقة، لا زيف يغلفها ... ولا رياء ولا مين ولا دجل
هذى الحقيقة، يا للعار وصمتها ... حطت على جيل، طوبى للألى رحلوا
خلوا لنا العار، نسقاه ولا ظمأ ... ونتقيه ولا يبدو لنا أمل»[3]

(١) المصدر السابق نفسه- ص٤٥٠، ٤٥١.
(٢) السابق نفسه- ص٣٦٠.
(٣) السابق- ص٤٥١.

إن هذا الشعور الحاد بالإحباط حطم قلب هذا الشاعر، ووأد أحلامه وطموحاته؛ لأن الأمر لم يقف بالعرب عند الاختلافات والتنازعات الداخلية المحدودة، بل تجاوز ذلك كله إلى حد نشوب حرب مفتوحة اجتاح فيها بلد عربى مسلم (دولة العراق) بلداً عربياً مسلماً مجاوراً له (دولة الكويت). وهو ما عرف بـ «حرب الخليج الأولى» التى وقعت عام ١٩٩٠م.

وهنا وجدنا هذا الشاعر يفرد ديواناً كاملاً[1] لرصد أبعاد تلك الحرب، وآثارها الكارثية الخطيرة التى غذتها أحداث لاحقة لم تترك للشاعر وغيره من أبناء العرب المخلصين غير مشاعر اليأس والإحباط.

وفى هذا الديوان قصيدة بعنوان «بقايا العروبة» وقد عقب الشاعر على هذا العنوان بقوله: (بعد انفصال ١٩٦١ والتهام ١٩٩٠)، وقد جاءت متفقة تماماً فى مطلعها وفى معظم أبياتها كذلك مع قصيدته (عار الانفصال سنة ١٩٦١). وكأننا بالشاعر يريد أن يجدل من كلتا القصيدتين، ومن الفراغ الزمنى الواقع بينهما معادلته التى تفترض وجود علاقة وطيدة بين حالة الانفصال والتفرق- التى حذر منها من قبل- وبين ما نتج عن تلك الحالة من نتائج مأساوية خطيرة.

ولكن يلاحظ أنه على الرغم من اتفاق القصيدتين فى المطلع ومعظم الأبيات إلا إن الشاعر قد انحرف بتساؤلاته هنا؛ ليضيف أسئلة أخرى إلى التساؤلات التى توجه بها إلى العرب منذ حوالى ثلاثين عاماً؛ فالأحداث المعاصرة التى جدت، والرؤى المعتمة التى كشفت عنها هذه الحرب العبثية تتطلب من الشاعر أن يسوق بعض التساؤلات المستحدثة التى تتناسب مع حجم الكارثة التى حلت فى تسعينيات القرن العشرين؛ فاحتاجت بالضرورة إلى صياغة جديدة:

«أيقول: كنا إن كسبنا قوة ... نعمى، فنرمى من ندافع عنهم؟
وإذا ملكنا النار، ضل لهيبها ... فارتد فى أثوابنا يتضرم؟
ونمزق الأرحام من أوصالها ... فكأن لا دين هناك ولا دم؟
نغزو أهالينا، ونذبح إخوة ... منا، ومن لحم الأشقة نطعم

(١) الديوان يحمل عنوان دماء العروبة على جدران الكويت- الأعمال الكاملة- ١/ ٤٨٣.

نلقى لعاصينا زمام أمورنا   ولدى محاريب القداسة نأثم
فمن احتمى بجوارنا نغتاله   ومن اطمأن لعهدنا لا يرحم
سقنا على أرض «الكويت» مآتماً   خزيت لها فوق السماء الأنجم
حتى شكت أرض لنا وتفجرت   تبكى من العار الأثيم وتلطم»[1]

ثم يكمل الشاعر قصيدته على نسق قصيدته السابقة (عار الانفصال سنة ١٩٦١) دون أى اختلاف أو تغيير.

ولكن تلك الحالة المأساوية الخطيرة أدت بهذا الشاعر إلى الذهول من هول ما جرى، وما ترتب عليه من آثار مدمرة.

وهو ما دعاه إلى إنشاء قصيدة أخرى ينفس فيها عن مواجعه، فعمد إلى حشد من التساؤلات التى تكشف عن عمق مأساته وجراحه:

«ندعوا ونسأل كل شىء حولنا   ماذا؟ وكيف؟ وما جرى؟ وإلا ما؟
ونحار بين سؤالنا وجوابه   إن الجواب يزيده إبهاما
ما كان.. عز على مدى إدراكنا   فاق الرؤى والفكر والأوهاما
من كان يحسب أننا بعشيرة   لا ترحم الأخوال والأعماما؟
من كان يحسب أن فى أثوابنا   وحشا يخون ولا يصون ذماماً»؟[2]

وفى هذا الإطار لا يفوت الشاعر أن يشير إلى النوايا الخبيثة التى أذكت نيران هذه الحرب العبثية التى أشعلتها أطماع وأحقاد أمدتها بكل أسباب الاضطرام:

«لم تشهد الدنيا حريقاً مثله   من حوله كل الأنام تزاحموا
كل رمى فى النار من أطماعه   حطبا يزيد به اللهيب ويعظم
وبلادنا وسط اللهيب فريسة   مهما استغاث نداؤها لا ترحم»
-«فالكل منتظر هناك نصيبه   حتى إذا نضجت تعد وتقسم»[3]

وفى موضع آخر يقول- معبراً عن المعنى ذاته:

(١) السابق- ص٥٠٥، ٥٠٦.
(٢) المصدر السابق- ص٥٤٤.
(٣) الأعمال الشعرية الكاملة- محمد التهامى – ص٥١٧.

obeikandl.com

«فأسرج الكل أنياب مسممة | كل له في دمي - يا ويلتي - أرب
صاغوا لنا من عمى أخطائنا شركاً | لا الحرب تنقذنا منه ولا الهرب
-«تداعت إلى حينا الأطماع واثبة | من كل مغتصب أغراه مغتصب»[1]

كما لا يخفى شعوره بالإحباط من الآثار المدمرة التى خلفتها هذه الحرب على تربة الأرض العربية:

«صارت مرابعنا شوهاء مفزعة | فى كل ركن ترامت فوقها النوب
تعيش من أهلها قفراء عارية | تعيد ذكرهم الغالى وتنتحب»[2]

كما أطل هذا الشعور بالإحباط أيضاً فى قول الشاعر:

«ضاعت نهانا وضيعنا عروبتنا | لم يبق منها لدى إدراكنا نسب
هذا الرباط الذى عشنا نقدسه | لأنه فى مدى تاريخنا عصب
دسنا عليه فضجت تحته عرب | الناهبون لهم فى دارهم عرب
صرنا حيارى فكل يدعى عربا | حين العروبة.. لا صدق.. ولا كذب
كل الحقيقة قد باتت مبعثرة | خلف الأكاذيب تستخفى وتنتقب»[3]

لقد اجتاح بلد عربى مسلم بلداً عربياً مسلماً أخر مجاوراً له. وتلك حقيقة واقعة، وكارثة فادحة ألقت بظلالها التشاؤمية المحبطة على هذا الشاعر الذى كان دائماً معنياً بالدعوة إلى تحقيق الوحدة والتكاتف بين العرب. وما من شك فى أن نشوب تلك الحرب سيقضى على أى أمل كان قد تعلق به الشاعر فى تحقيق الوحدة بين العرب التى نذر جانباً كبيراً من شعره للدعوة إلى تحقيقها، ثم انعكست آثار إحباطاتها عليه حسرة وندامة.

«كنا نسير لوحدة أحلامها | تضوى فتلقى النور فى أيامنا
نسعى إلى غدنا السعيد وكلنا | فرح بما نهدى إلى أبنائنا
حتى صحونا تحت ليل غادر | يعوى، يصب الرعد فى آذاننا

(١) السابق - ص٥٢٢.
(٢) السابق - ص٥٣١.
(٣) السابق - ص٥٢١.

فنقوم، يجلدنا الذهول، لنلتقى ... بالذعر يملأ سمعنا وعيوننا
ونراه هولاً لا يصدق بعضه ... لكن أقصاه تجمع فوقنا
أهل، نراهم أوغلوا فى ذبحنا ... كنا نظنهم أتوا لعناقنا
وتهاوت الأرحام، يقتل بعضنا ... بعضاً، وتبكى تحتنا أسلافنا»
-«هذا هو الهول الكبير نعيشه ... لكنه هول أطاح بعقلنا
تتشابك الأيدى يقطع بعضها ... بعضاً، ويدمى القلب فى أحنائنا»
-«وتحكمت فينا الجحيم وسعرت ... ورمت شواظ النار فوق ديارنا
فالنار بين ضلوعنا مشبوبة ... والنار ترعى باللظى أرزاقنا
والنار فى الأفق البعيد تحفزت ... لتسد باب نجاتنا وتحيطنا
والعالمون جميعهم فى دهشة ... من شقوة الإنسان فى أوطاننا»(١)

ثم يبدأ الشاعر فى الغوص والانحدار إلى مهاوى هذا الشعور الفادح بالإحباط عندما نسمعه يقول:

«أرحامنا ... أنسابنا ... أسماؤنا لم تصدق
لم يبق فينا مؤمن ... من أصله لم يمرق
أو يبق فينا عاقل ... فى جهله لم يغرق»
-«كيف التوت أفكارنا ... من أخرق لأخرق

واسترسلت أعمالنا ... من أحمق لأحمق
ثم احتوانا سجننا ... من ضيق لأضيق»(٢)

كذلك نسمعه فى موضع آخر يقول:

«بتنا حيارى ونور الشمس يلعننا ... يسد فى وجهنا الدنيا وينسحب
ظهورنا للهلاك المر مسندة ... ووجهنا للهلاك المر يقترب
ودارنا فى فم البركان موثقة ... فيها ومن حولها يستحكم اللهب»

(١) المصدر السابق- ص٥٥٣- ٥٥٥.
(٢) الأعمال الشعرية الكاملة- محمد التهامى- ٢/ ٢٠٠، ٢٠١.

openkandi.com

-«هـذا جحـيم نعانيـه بـها اقترفـت ... أيـد لـبعض بطـون العـرب تنتسـب
يـا طـالما صـغت أشـعارى منضـدة ... تـذوب فى عمقهـا روحـى وتنسـكب
أناشـد العـرب أن تنسـاب فطـرتهم ... لوحـدة لنـداء الحـب تنجـذب»[1]

ولكن بعض هـؤلاء العـرب لم تستهوهم أو تجـذبهم نـداءات الحـب بقـدر مـا استهوتهم وسيطرت عليهم أطماعهم ونظراتهم المحدودة الضيقة؛ فدقوا أخر مسمار فى نعش الوحدة العربية، وأنهوا بذلك أى أمل كان من الممكن أن يتعلـق بـه هـذا الشاعر. لذلك لم يكن من المستغرب عليه أن يبدو فى غاية التشاؤم والإحباط بعـد أن سـقط فى براثن هذا التمنى المستحيل بتجميد حركة الزمن حتى تتوقف تلك الحياة التى تساوت تماماً بالموت بعد أن شهدت كل هذا الكم الهائل من الإحباطات:

«يـا ليـت أيـام الحيـاة كسـيحة ... شـلاء مـا ظفـرت بخطـوة سـائر
يـا ليتهـا جمـدت ومـات وميضـها ... مـن قبـل مـا انـدفعت لحـظ عـاثر
مـن قبـل مـا وثبـت إلـى وهـج اللظـى ... فرمـت بنـا فـوق الجحـيم الثـائر
يـا ليتهـا مـا عربـدت أحـداثها ... يـا ليتهـا حسـمت بكـف قـارد»[2]

كما كان لـ«حرب الخليج الأولى» وقع خاص وأثر فادح فى نفس الشـاعر د(عبده بدوى)؛ فقد كان يعمل «أستاذاً فى جامعة الكويت» إبان الغزو العراقى للكويت. ولذلك فهذا الشاعر يعد «شاهد عيان»[3] على تلك الحرب التـى ولـدت لديـه مشـاعر إحباطية عمل على إذكائها خيبة أمله العميقة فى القومية العربية، وما عاناه فى طريق عودته إلى مصر من أهوال. وهو يشير إلى تلك الصدمة المروعة فيقول:

«وفى ٢ أغسطس ١٩٩٠ سمعنا فى الفجر أصوات مدفعية من مساكننا فى الشـويخ، وأحسسنا بشىء من الضيق، فقد كان المناخ السياسـى ملتهبـاً، ومـا كـاد الفجـر تتفـتح وروده البيضاء، رغماً عنه، حتى رأينا على البعد أرتالاً من الـدبابات تلـتهم شـارع جمـال

(١) الأعمال الشعرية الكاملة- محمد التهامى ١/ ٥٢٢، ٥٢٣.

(٢) المصدر السابق- ص٥٤٩.

(٣) أطلق الشاعر هذا الاسم (شاهد عيان فى الكويت) على أحد دواوينه الشعرية التى تضمنها الجزء الثالث من أعماله الشعرية.

عبدالناصر، ورأينا وجوهاً عراقية عابسة تلوح بالبنادق والمدافع والوعيد، وهنا خاب فألى، وتناثرت قوميتى». «وهنا وقعت فى أكثر من مأساة فأنا لم أشهد فى حياتى احتلالاً عربياً للعرب، ثم إننى كنت وحيداً مع ابنتى داليا لمتابعة الفصل الصيفى، وهنا اسودت الحياة فى وجهى وفى عمرى ولم أعرف ماذا أفعل»[1].

انتهت إذن إقامة الشاعر فى الكويت؛ بغزو العراق لها، وبعودته إلى مصر. لكن مشاهد تلك المأساة ظلت ذكرياتها المرة المروعة مسيطرة تماماً على مخيلة هذا الشاعر بعد أن أشبعته يأساً وإحباطاً:

«فالظلم أقسى ما يكون إذا اكتسى بعباءة عربية سوداء
ولقد عرفناه اجتياح قبيلة لقبيلة بمسيرة نكراء
ولقد لمسناه رمالاً ترتمى من غير راحلة، وقربة ماء!»[2]

إن الشاعر لم يذق طعم الراحة أو الاطمئنان طول طريق عودته إلى مصر:

«صرنا لا نعرف شيئاً مما يجرى فى هذى النكبه
فلقد كنا فى غربه
ولقد كنا بين شتات لا نملك حتى أن نفهم
فالظلمة صارت مثل البحر تلاطم فى ساعات!
أصبحنا لا ندرى ماذا نفعل
فسفارتنا لا تعرفنا
والهاتف جن فلا يعطى إلا الصرخات
ووكالات الأنباء الثرثارات
لم تسترسل فى الدقات
بل راحت فى صمت قاتل
تتلوى مثل الأموات

(١) انظر الأعمال الكاملة للشاعر عبده بدوى ٣/ ١٥٣ - ١٥٧.
(٢) المصدر السابق - ص٧٥.

إلا من بعض فتات!»[1].

ولا ينسى الشاعر أن يشير إلى الصمت المطبق الذى خيم على الأجواء؛ فقد صارت الدول العربية إلى صمت القبور غير عابئة أو غير قادرة على إيقاف هذا المسلسل المخزى؛ فقد كانت محطات البث العربى تدوى:

«... مثل إناث النحل من

الملكات بأغانى اللوعة، أو بعض التقسيمات

وبأسعار الدولارات

وبإيماءات للسهرات!»[2].

إن الشاعر يشير فى أسى جم إلى الوضع العربى المتردى الذى غاب عنه التكاتف والتعاضد بين أبناء الوطن الواحد. وهو ما يعنى غياب أى آلية عملية مشتركة لجمع العرب، وفض منازعاتهم.

ثم توجه الشاعر- والأسى ملء جوانحه- إلى دولة (الكويت) بهذا الخطاب المتحسر على ما صار إليه حالها من التدمير والخراب على يد دولة العراق العربية:

«قد صرت وقوداً للحرب

قد صرت مجالاً للنهب

ولماذا كان الأخوه

من قالوا: نحن العرب؟»[3].

ومن جديد يعود الشاعر إلى تساؤلاته الذاهلة حول تلك الحرب العبثية، وفى هذه المرة يرتدى الشاعر قناع شاب كويتى؛ ليشاركه آلامه ومواجعه:

«من قال بأن الجيران الأخوه

تقسوا مثل الدببة

(١) السابق نفسه- ص١٦٤، ١٦٥.

(٢) السابق- ص١٦٥.

(٣) السابق- ص١٧٢، ١٧٣.

لا تملك إلا حز الرقبه
ومطاردة لأيائل منسحبه؟»[1].

لكن الشاعر قد وعى جيداً أن تساؤلاته هذه لم تعد تجدى نفعاً على الإطلاق؛ فالحرب بين العراق والكويت كانت قد وقعت، وفرض على هذا الشاعر المصرى أن يكتوى بكل تفاصيلها، وتداعياتها الخطيرة لذلك لازمه الشعور بالإحباط إلى الحد الذى أعلن فيه عن مطالبته ورغبته فى شطب حركة الحياة من هذا الوطن العربى المنهار، واستدعاء مفردات الموت والثبور والتغييب والدفن لهذا الوطن العربى الذى احترف فيه الأهل والجيران التمثيل والكذب والنفاق وأكل بعضهم بعضاً:

«قد قلت وشيء يملؤنى مثل العار
«أرجو شيئاً لا أعدوه»
لما قالوا «ماذا تبغى؟»
تمتمت «جهازاً للإرسال»
كى أتكلم من نفسى مرة
وأقول بصوت سيار:
هذا التمثيل بعالمنا العربى المنهار
كذب، ونفاق، واستهتار
فلنسدل فوق التمثيلية.
من بعد اللهو ستار
ولتحفر كف الحفار
نفقاً من غير قرار
فالموت هو الشيء المجدى للأشجار
عن أزمان ماتت من غير ثمار
عن عقم فى قلب الأنهار

(١) السابق- ص١٩٦.

عن آذان ما زالت تكبر باستمرار

عن أسياف لا ترفع إلا فوق الأهل! وفوق الجار!!»(١).

كما ألقت حالة تمزق العرب، وتشرذمهم بظلالها القاتمة على الشاعر (حسن توفيق) الذى ينعى تلك الحالة التى وصل إليها العرب من خلال رصده حادثة مأساوية. هى محاصرة بعض العرب مجموعة من اللاجئين الفلسطينيين، وتجويعهم؛ والشاعر يقول- نثراً- فى التقديم لتلك القصيدة: «فى فبراير ١٩٨٧ كان بعض أهلنا العرب محاصرين من قبل بعض آخر من أهلنا العرب!.. كان هذا فى مخيم برج البراجنة، وطالب المحاصرون الجائعون باستصدار فتوى تتيح لهم أكل لحوم الموتى..».

والشاعر يفتتح قصيدته بالإشارة إلى هوان العرب، وحالتهم المزرية التى وصلوا إليها. وهى حالة تشبه التنبؤ بمجئ طوفان كبير سيأتى على الأخضر واليابس، يقول:

«جبل جليدى من اليأس الذى ينهار فوق قلوبنا المتوجسه

ينهار- فى بطء- على كل المدائن والمآذن والبيوت ولا يذوب

ويجرنا للزوجة المستنقعات المفلسه

والشمس كاذبة وغاربة كأن لا شىء فى الدنيا سوى نعش الغروب

الشمس كاذبة وأرض النور تجهش باكيه

فمن المحيط إلى الخليج

نمضى لأبشع هاويه»(٢).

ثم ينفذ الشاعر مباشرة إلى قلب المأساة، فيقول:

«يا أيها الزمن المؤهل للسقوط بأمة غرقت صحائفها المجيده

جئناك بالنبأ اليقين، وما عليك سوى الترقب للمتاهات الجديده

منعوا الطعام عن الذين تشردوا من أرضهم فاستقبلتهم أضرحه

وتلقفتهم خيمة القهر المخلخلة البناء

(١) المصدر السابق نفسه- ص١٦٩، ١٧٠.

(٢) القصيدة هى (مرثية الزمن العربى) انظر الأعمال الكاملة- حسن توفيق- ص١٤٣، ١٤٤.

وتساندوا متحملين خطى الشتاء، ففوجئوا بهطول أعتى الأسلحه
وبأن أنهار الدماء تفبض من أجساد جرحاهم ولم يأت الدواء
هذا هو النبأ اليقين
الجوع يعصف بالبطون الخاويات ولا معين
ماذا يقول المتخمون الجالسون على الأرائك فى انتشاء وارتخاء؟
فليأكلوا أجساد موتاهم لكى يبقوا على قيد الحياة محاصرين
ما دام فى أمل الصهاينة انتشار كالوباء
والمسلمون.. مطامع، وتوابع، وشقاق
فإذا تلاقوا- مرة- وتصافحوا عند اللقاء
فالأرض تعرف جيداً أن اللقاء نفاق»[1].

إن استخدام الشاعر كلمة (مرة) فى قوله (فإذا تلاقوا مرة وتصافحوا) يشير إلى قلة حدوث هذا التلاقى والتصافح. وهو ما يؤذن بندرة حدوث أى اتفاق أو تفاهم بينهم.

وكلام الشاعر فى هذه القصيدة يؤكد على وضوح ما وصل إليه العرب من تشتت وتمزق وتشرذم ينذر بوقوع كارثة كبرى يكون السبب المباشر فيها سقوط بعض الأنظمة العربية فى التواطؤ مع الكيان الصهيونى الذى اتخذ من بعض العرب أداة طيعة؛ لتفريق العرب، وتمزيق صفوفهم؛ حتى يتحولوا إلى لقم سائغة يسهل على أعدائهم قضمها وهضمها دون ضجيج، ودون أى مقاومة تذكر.

والشاعر فى إطار ذلك لم ينس أن يشير إلى الحرب الأهلية اللبنانية التى «اندلعت فى عامى ١٩٧٥- ١٩٧٦»[2]:

«يا أيها الزمن المؤهل للسقوط.. بلا دوى
جئناك بالنبأ اليقين
من أرض لبنان الطعين

(١) السابق نفسه- ص١٤٥، ص١٤٦.
(٢) الدم وثنائية الدلالة- د/ مراد عبدالرحمن مبروك- ص٣٢.

حيث القلوب يشقها لفح الهواء الطائفى

والحقد ميراث دفين

يسقيه من عبثوا لمرتزق تفنن فى التمسح بالكيان العنصرى»[1].

إنها الحرب الأهلية فى لبنان التى استمرت عشر سنوات تقريباً بعد أن عملت أطراف داخلية وخارجية على إذكاء نيران تلك الحرب الطائفية، التى كانت حرباً محبطة لكل عربى غيور على عروبته. وهو ما جعل هذا الشاعر يتناول ذلك الوضع المحزن فى أكثر من موضع من شعره:

«آه لبنـــان والأفـــاعى تتـــاجر بالـــدم الجـــارى فى بحـــور المجـــازر

مســـخت أرضـــك الوديعـــة قبـــرا موحشـــاً مبتلـــى بكـــل مغـــامر

هكـــذا يطحـــن الرصـــاص كيانـــا عربيـــاً تقاســـمته المحـــاور

بـــت تـــدمى ولم يعـــد لـــك منجـــى مـــن هـــلاك إلا بمـــيلاد ثـــائر

مـــا دعـــاة التقســـيم إلا ثعالـــب طـــائفى فـــيهم وفـــيهم أجانـــب»[2]

وإذا كان قد صاغ قصيدته السابقة عام (١٩٧٦) فإنه يعود بعدما يقرب من عشر سنوات؛ ليصوغ قصيدة أخرى هى قصيدة (لبنان والجحيم). وهى قصيدة جاءت مواكبة لنهاية تلك الحرب المأساوية الدامية. ولكن نهاية تلك الحرب لم تعن مطلقاً أن الشاعر قد استطاع أن يتغلب على مشاعر الإحباط، وأن يتخلص من آثارها على نفسه، حتى مع إعلان توقف تلك الحرب الطائفية. ذلك عندما يقدم الشاعر بين يدى قصيدته هذه بمقدمة نثرية يقول فيها: «..إذا كان لبنان العربى الجميل يستعيد حيويته من جديد، فإن سنوات الاقتتال بين طوائفه وفئاته المختلفة كانت كارثة لكل إنسان عربى مخلص لعروبته..».

ويتضح أيضاً ذلك أكثر عندما نستمع إلى قصيدة الشاعر؛ حيث يقول فيها:

«قالت الأرض: لست أريد دما، فأنا من سنين شربت الكفايه

واحتضنت الجثث

(١) الأعمال الكاملة- حسن توفيق- ص١٤٥.

(٢) المصدر السابق نفسه- ص٣٩٠.

openkandil.com

أبصروا بعض أشلائى بعدما شوهتها أياديكم المذنبه

كل شلو بحضنى هنا أصبح الآن يروى حكايه

اسألوا طلقة الآلة المرعبه

اسألوا مرة كيف هنا حدث؟

يقتل المرء.. لو لونه لم يرق لمجون العيون

يقتل المرء.. لو حاصرته الظنون

يقتل المرء.. حتى ولو كان طفلاً بروح بريئه

فغدا يكبر، والأحوط أن تقتلوه

يقتل المرء.. كى يستريح إذا أرهقته الحياة بأثقالها

يقتل المرء.. كى يستريح تماماً من العيش فى ظل بؤس «المخيم»

يقتل المرء.. لو راح يعدو لينجو من القصف كى يستقر فينعم

يقتل المرء.. حتى ولو كان أما رؤوما تحيط بأطفالها

يقتل المرء.. لو دينه لم يرق للنفوس الدنيئه

يقتل المرء.. لو صوته غير أصواتكم أيها الحاملون الجنون

أيها الحاملون السلاح المباح ولا تحملون عقولاً مضيئه»[1].

إن تكرار عبارة (يقتل المرء)، ومجيئها على صيغة المضارع المبنى للمجهول يومئ إلى غموض كثيف يلف تلك الخرب الطائفية؛ فالقتل هو المحصلة الطبعية التى أفصح الفعل المضارع عن استمرارية وقوعها- على الرغم من انتهاء الحرب- دون معرفة المبرر ولا معرفة القاتل أيضاً ولا الدوافع الحقيقية التى وقفت وراء إقدامه على قتل أخيه اللبنانى العربى. هذا الغموض كان وراء عجز الشاعر عن الإجابة عن التساؤلات التى أخذت تلقيها ق وجهه حبيبته (أم أطفاله)؛ لأنه لم يعثر لها على إجابة شافية سوى تلك الإجابة التى تشف عن مشاعر الإحباط واليأس:

«أم أطفالنا سألتنى: «لأين»

(١) السابق نفسه- ص١٣٩، ص١٤٠، ص١٤١.

صوتها لم يكن صوتها.. صوتها كان منبعثاً من قرار الجحيم
صوتها كان صوتاً لذعر مقيم
سألتنى الحبيبه
فجأة.. أين نمضى؟ وأين ليالى الأمان الخصيبه؟
قلت: لا أعرف الآن شيئاً.. دعينا لكى نحتمى من لئام الوجوه
سألتنى الحبيبه
- من جديد- لأين سنمضى؟ لأين.. لأى مكان»[1].

ولكن تلك الحبيبة التى اعتادت توجيه مثل تلك الأسئلة المثيرة للأسى إلى الشاعر المحبط المذهول لم تعثر منه على أية إجابة تبعث الطمأنينة فى قلبها؛ فقد ترك هذا الشاعر اليائس مهمة الإجابة لقنبلة تنفجر فتبعثر شظاياها حوله وحولها:

«قلت: ليس لنا.. ها هنا.. من مكان
فاتركى الأسئلة
كى تجيب عليها شظايا تبعثرها- فجأة- حولنا قنبله!»[2].

وهكذا بدا أن إحباطات الشاعر لا تقف عند حدود حوادث معينة مؤطرة الأبعاد محدودة الأثر، ولكنها تتجاوز ذلك إلى اعتماد رؤية شاملة تعتبر أن الكيان العربى كله قد بات مهدداً بفعل الخلافات والانقسامات البينية، والتى أصبحت غائرة ومزمنة فى جسد الوطن العربى بصورة تنذر بضياع أغلى المقدسات والأراضى من بين أيدى العرب؛ ويتضح ذلك من قصيدة الشاعر «رسالة من تحت الرصاص» التى تقمص فيها روح شهيد فدائى فلسطينى، وأنشأ يقول:

«لم أكن أبغى رفح
وحدها.. بل كنت أبغى كل أقطار العروبه
صارخا فى الناس هبوا.. ويحكم.. ويح السكارى

(١) المصدر السابق نفسه- ص١٤٢.
(٢) السابق نفسه الصفحة نفسها.

قدسكم تبكى عليكم.. قدسكم تبكى انتظارا
أرضكم ترنو إليكم.. أرضكم تبكى الفرح
منذ أن باتت سبيه
ويح أشواق كذوبه
تتغنى بهواها
وهى فى الأسر..
تنادى كل روح عربية
ها أنا الآن انطفأت
كشعاع لفه الليل بأفق مستباح لمناقير الصخب
هل ترى مت بطلقات وحوش من بنى التلمود أم أنى قتلت
بالهواء البارد القاسى..
هواء الصمت والأهواء فى دنيا العرب؟!»[1].

لقد بدا أن تحكم الأهواء والأطماع الشخصية الضيقة لدى بعض حكام العرب سيؤدى إلى توالى الاقتتال بين أبناء الوطن الواحد. وهو ما سيؤدى إلى إضعاف شوكتهم. ومن ثم يكون توالى التنازلات عن الحقوق العربية المغتصبة أمراً محتوماً طالما ظل حالهم على هذا النحو من التفرق والتشرذم. وهو ما يؤذن بزوال أمة العرب، واندثارها تماماً، وإلى هذا المعنى قد أشار الشاعر فى قصيدته (روما صنم وتابوت)[2]، وكذلك قصيدته «مرثية الزمن العربى» التى اختتمها بقوله:

«جبل جليدى من اليأس-المقيم يشلنا بعد التعلل بالأمل
وعلى خطى الجبل الذى يجتاح أرض الأنبياء
تبقى طلول شاهدات ليس فيها من ملامحنا سوى بعض الخجل
والنار أولها القريب وبعده يأتى البعيد المستكن ولا رجاء

(١) المصدر السابق نفسه- ص١٣٣، ١٣٤.
(٢) انظر المصدر السابق نفسه- ص٢٥٩.

وعلى المدى يأتي زمان شانه يتساءل الأحياء فيه عن العرب
فيتمتمون بأنهم كانوا هنا قبل الأفول
لكنهم رقصوا سكارى حول إيقاع التقارب والتباعد فى الخطب
ثم اختفوا بين الخرائب وانطووا تحت الطلول»[1].

إنه بلغ قمة الشعور بالإحباط بعد أن فقد الأمل فى هؤلاء العرب الذين لا يجيدون غير اللعب على أوتار الخطب الرنانة العبثية التى لن تعيد حقا، ولن تنصف مظلوماً. ويبقى الإحساس بالخزى والذلة واليأس لصيقاً بالإنسان العربى المخلص؛ لما آلت إليه أحوال العرب التى تدمى القلوب:

«لا أعرفها.. لكن سناء[2]
تعرف أني أحد الموتى المتكئين على مجلس وهم
تعرف أني أتلهى بالجمل- الحيل المخبوءة فى كتب الإنشاء
أتخفى فى وحل الحجج المعتادة إن برز التمساح وفاض الدم
يتسرب منى تاريخى.. وطنى.. يتسرب صوتى فى رمل الإغواء
وأعود أمارس ألعابى.. وأتابع رقص الشرق.. أتابع أسخف فيلم
قدر لى.. أن أبقى أتفرج ....
قدر لى.. أن أتعلق فى زمن عربى الخيبة.. مرتجف الأعضاء
قدر لى.. ألا أخجل من أخيب ألعابى أو أتحرج
قدر لى.. أن أبقى أتطاير كالورق المتناثر فى الريح الهوجاء..»[3].

كما التقط الشاعر فاروق جويدة حادثة محاصرة مجموعة من الفلسطينيين فى لبنان ومطالبة هؤلاء المحاصرين باستصدار «فتوى من علماء المسلمين تبيح لهم أكل

---

(١) السابق- ص١٤٦، ١٤٧.

(٢) (سناء يوسف محيدلى) فدائية لبنانية استشهدت (بعد أن قامت بعملية فدائية بطولية ضد الاحتلال الصهيونى فى جنوب لبنان)- انظر المصدر السابق نفسه- ص١٢٦.

(٣) المصدر السابق نفسه- ص١٢٧، ١٢٨.

جثث الموتى حتى لا يموتوا جوعاً»[1] - لينسج من خلالها قصيدته الرائعة (ملعون يا سيف أخى) والتى تعد من عيون الشعر العربى المعاصر، ومن أكثر القصائد صدقاً وتعبيراً فى هذا المجال، فعنوان القصيدة يشى بمحتواها المر ويصدح به، فهو يعبر عن خيبة الأمل فى الأخ العربى الذى لم يتوقف به الأمر عند حد القعود عن نصرة أخيه العربى ومساندته، ولكنه قد تجاوز ذلك إلى محاصرة هذا الأخ وإذلاله وتجويعه.

والشاعر فى تلك القصيدة يرتدى قناع أب فلسطينى ذاق مرارة الجوع والحصار لا على يد العدو الصهيونى ولكن على يد أخيه العربى فى لبنان، وقد وصل الجوع بهذا الأب الفلسطينى إلى حد كاد أن يفتك به ويقتله، لذلك فهو يطالب بفتوى باسم الإسلام تتيح له أكل لحوم الموتى.

ولكن ملامح المأساة تتشكل وتكتمل لتملأ الحلوق غصصاً ومرارة عندما نجد هذا الفلسطينى يريد أن يفتى له بجواز أكل لحم ابنه الذى قتل أمام عينيه وسقط صريعاً بين مخالب جوع لا يرحم:

«لم آكل شيئاً
منذ بداية هذا العام
والجوع القاتل يأكلنى
يتسلل سما.. فى الأحشاء»
- «من منكم يمنحنى باسم الإسلام؟
أن آكل ابنى..
ابنى قد مات
قتلوه أمامى
قد سقط صريعاً
بين مخالب جوع لا يرحم
بعد دقائق سوف أموت

(١) لن أبيع العمر - فاروق جويدة - ط ١ - دار الشروق - ٢٠٠٧ م. ص٥٤.

ودماء صغيرى شلال

يتدفق فوق الطرقات

أعطونى الفرصة كى أنجو

من شبح الموت

لا شيء أمامى آكله.. لا شيء سواه»[1].

إن الشاعر قد افتتح قصيدته بحرف النفى الجازم (لم آكل) وهى بداية افتتاحية مرة غطت مرارتها كل أرجاء القصيدة، وغذت الشعور بالإحباط بداخل هذا الإنسان العربى الذى عز عليه إيجاد المنصف والنصير؛ بل إن القهر والإذلال والتجويع قد صار يمارس فى أبشع صوره من بلد عربى فى حق فئة مستضعفة من بلد عربى آخر مجاور له، وهو أمر يدعو إلى الذهول والانزعاج ويفتقد أساساً إلى أى تبرير منطقى.

لكن هذا الأب الفلسطينى قد وجد فى جوعه الذى وقف به على مشارف الموت المبرر الذى يخفف من الدهشة والانزعاج من طلبه باستصدار فتوى تبيح له أكل لحم ابنه الميت. ومن ثم فقد شرع فى الدفاع عن نفسه:

«لا تنزعجوا

لست بمجنون.. أو قاتل

فأنا صليت الفجر ورب الكعبة عشر سنين

لم أترك فرضاً

وكثيراً ما أقرأ وحدى

ورد الصوفية.. كل صباح

وأنا والله أصوم ويسحرنى

قبس من نور فى رمضان

وأهيم وحيداً..

حين يطل على قلبى نور الرحمن

(١) السابق- ص٥٤، ٥٥.

وأنا والله أخاف الله

وأخشى يوماً تنكرنى فيه قدماى»

«قد جئت الآن لأسألكم

أفتونى باسم الإسلام

أن آكل ابنى

إنى والله أبوه.. وأعرف أمه

أشهد والله بأن امرأتى

ما كانت يوماً زانية

كى تزنى فيه

ولدى من صلبى أعرفه

ومن لون الشعر.. إلى قدميه»[١].

ويظل الشاعر فاروق جويدة يستعطف القلوب ويستمطرها بكاء وحسرة على ذلك الأب المفجوع فى ولده القتيل، ولننظر فى تلك الصور المؤثرة:

«أحببت صغيرى

حملته يداى.. وأسمعنى

أحلى الضحكات

ولدى قد مات

أحمله الآن على صدرى

أشلاء رفات

كم كنت أصلى فى عينيه

ويغمرنى ضوء الصلوات

كم كنت أحدق فيه

(١) انظر السابق - ص٥٥ - ٥٧.

فألمح عمرى بين يديه»

«ولدى من زمن يسكننى

وأنا من زمن أسكنه

قد عاش زماناً فى صدرى

والآن تكفنه عينى

فدعونى آكل من ابنى

كى أنقذ عمرى»[1].

ولا يفارق الشاعر فاروق جويدة ذلك القناع حتى يرهقنا بتفاصيل تلك الصورة الرهيبة:

«ماذا آكل من ابنى؟

من أين سأبدأ؟

لن أقرب أبداً من عينيه

عيناه الحد الفاصل

بين زمان يعرفنى

وزمان آخر ينكرنى

لن أقرب أبداً من شفتيه

شفتاه نبى مصلوب

برسالة نور تهدينى

وبريق ضلال يجذبنى

لن أقرب أبداً من قدميه

قدماه نهاية ترحالى

فى وطن عشت أطارده

(١) السابق - ص٦٠ - ٦٣.

obeikandl.com

وزمان عاش يطاردنى»[1].

إن هذا الشاعر المحبط لم يرد من ارتدائه لقناع هـذا الأب الفلسـطينى إلا أن يقـوم بعملية عصر القلوب واستبكائها لاستقطار مشاعر التعاطف والشفقه التى ضـاعت بنـي العرب المسلمين. هذا من ناحية ثم إنه مـن ناحيـة أخـرى يريـد أن يرمـز بتلـك الحالـة الإنسانية إلى ما وصل إليه حال العرب المسلمين من تشتت وانقسام، وهو ما سـينعكس بالضرورة آثاراً سلبية على صور مقاومة العرب ومحاربتهم أعدائهم:

«حاربت كثيراً أعدائى
لم أهزم منهم
حاربنى ظلى
حاربنى سيفى.. يا للعار
تسلل فى ظلمة ليل
كى يسكن جنبى
حاربنى قلبى
كيف الشريان تنكر يوماً.. خادعنى
وغدا سكينا فى قلبى؟!
فأخى فى الله.. وباسم الدين
وباسم محمد
يقتلنى فى غرفة نومى
ابنى قد مات بسيف أخى
وغداً سأموت بسيف أخى
ملعون يا سيف أخى فى كل كتاب»
-«ملعون يا سيف أخى
فى كل زمان

(١) السابق- ص٦٣، ٦٤.

ملعون يا عار أخى
خوفاً فى صدر المحكومين
وبطشاً فى أيدى الحكام
ملعون يا سيف أخى»[1].

إن لعنات الشاعر تنصب بصورة مكثفة لا على العدو الخارجى البغيض بل على الأخ العربى الذى استخدم سيفه الباطش أداة لقهر وقمع أخيه العربى المسلم بدلاً من أن يستخدمه فى الذود عنه والوقوف إلى جانبه، وبذلك يصل الشاعر إلى حالة تامة من الإحباط أعقبها هذا التبرؤ من تلك الأخوة التى لا تراعى حرمة النسب أو الدين أو الدم:

«خانتنا كل الأرحام
ما أنت أخى
قد جئت سفاحاً يا ملعون.. وابن حرام
ملعون يا وجه أخى
فدمى يتحلل فى الأنقاض
وبين الموتى.. والأيتام
ملعون يا سيف أخى
سيف يتعبد للسفهاء
ويسحقنا تحت الأقدام»[2].

وبعد، فقد كانت قصيدة (ملعون يا سيف أخى) تحمل بين طياتها تعبيراً رمزياً مكثفاً امتلأ بفحوى مضمونه كيان هذا الشاعر المحبط الذى كان يوقن أن اختلاف العرب وتناحرهم سيؤدى بالضرورة إلى إضعاف شوكتهم وهو ما سيعطى للعدو المشترك فرصة سانحة وميزة إضافية لمضاعفة قوته. لذلك وجدنا الشاعر فى قصيدة

(١) السابق- ص٦٦- ٦٨.
(٢) السابق- ص٦٨، ٦٩.

أخرى يرثى هذا الضعف والتمزق الذى غذته الأطماع الخارجية والنزاعات البينية:

«قد وهنت
فينا المروءة
أعيننا مآسينا
بيروت فى اليم ماتت
قدسنا انتحرت
ونحن فى العار نسقى وحلنا طينا
بغداد تبكى
وطهران يحاصرها
نهر من الدم
بات الآن يسقينا»[1].

إن الشاعر يشير إلى مجموعة من الأحداث السياسية الخطيرة ممثلة فى احتلال إسرائيل لفلسطين ممثلة فى أبهى وأقدس معالمها وهو القدس الشريف، كما أشار كذلك إلى الحرب الأهلية فى لبنان (عام ١٩٧٥)، وإلى حرب العراق وإيران (عام ١٩٧٩) والتى استمرت كل منهما ما يقرب من العشر سنوات.

كما لا يفوت الشاعر أن يشير إلى اجتياح العراق للكويت فى قصيدة أخرى هى قصيدة «سيف الغدر كذاب» وفيها يقول:

صرنا أسوداً نبيع الموت فى سفه ... أسد على الأهل.. للأعداء أذناب
دم الكويت على عينيك أرقنى ... فهل جزاء الوفا قتل.. وإرهاب؟
هذا أخى يستبيح الفجر فى وطنى ... أحلامنا البكر فى كفيه أسلاب
هذا أخى فى حنايا القلب يسكننى ... فكيف تسكن وسط القلب أنياب؟

إنه إذن حال لا يرتجى من ورائه بادرة أمل ولا يبشر بخير على أية حال.

وبالطبع فإن من يتحمل المسئولية عن تلك الحال المتردية هم حكام العرب

(١) طاوعنى قلبى فى النسيان- فاروق جويدة- دار غريب - ١٩٨١م. ص٥٥،٥٦.

obeikandl.com

الذين باعوا النخوة والأخوة والشهامة واشتروا عرض الدنيا الزائف بعد أن شغلتهم أطماعهم الدنيوية وتفرغوا لمجابهة بعضهم البعض*:

«حكامنا ضيعونا حينما اختلفوا

باعوا المآذن

والقرآن والدنيا

حكامنا أشعلوا النيران

فى غدنا

ومزقوا الصبح

فى أحشاء وادينا

مالى أرى الخوف فينا

ساكناً أبداً

ممن نخاف

ألم نعرف أعادينا؟»[1].

لكن إجابة الشاعر على هذا التساؤل لا تتأخر وهى إجابة واضحة تؤكد على فكرة أن هؤلاء الحكام المتنازعين المختلفين الذين تفننوا فى قمع شعوبهم والبطش بهم تارة وتخديرهم بوعود واهمة واهية تارة أخرى هم العدو الحقيقى:

«أعداؤنا

من أضاعوا السيف من يدنا

وأودعونا سجون الليل تطوينا

أعداؤنا

من توارى صوتهم فزعا

* انظر قصائد سيف الغدر كذاب ص٢٩. وقصيدة مرثية ما قبل الغروب ص٣٩. وقصيدة كانت لنا أوطان ص٤٥. وقصيدة سيف الغدر كذاب ص٢٩. ولصوص العصر ص٥٤، من ديوان كانت لنا أوطان.

(١) طاوعنى قلبى فى النسيان- فاروق جويدة ص٥٧، ٥٨.

والأرض تسبى

وبيروت تنادينا

أعداؤنا

أوهمونا آه كم زعموا

وكم خدعنا

بوعد عاش يشقينا

قد خدرونا بصبح كاذب زمناً..

فكيف نأمل

فى يأس يمنينا

أى الحكايا ستروى

عارنا جلل

نحن الهوان

وذل القدس يكفينا»[1].

وفى موضع آخر يعبر عن المعنى ذاته فيقول:

«وعلى رصيف القهر

ماتت أمة ثكلى.. وودعت الكرامه

أطفالنا بين المقابر يأكلون الصبر

يرتعدون فى زمن الندامه

ما بين جنرال.. وشيخ.. أو مليك

أو وريث فى عمامه

القهر فى أوطاننا سمة الزعامة

والقتل فى حكامنا أبهى علامه»[2].

(١) طاوعنى قلبى فى النسيان- فاروق جويدة ص٥٨-٦٠.

(٢) كانت لنا أوطان- فاروق جويدة- ص٥٩.

إن البوادر كلها تشير إلى مشاعر إحباطية طاحنة عرفت طريقها مباشرة إلى نفس هذا الشاعر الذى يئس من تحقيق الوحدة والتكافل والتناصر بين أبناء الوطن العربى الواحد، وعرفوا الذلة والهوان، وقعود الهمة، فكان ذلك إيذاناً بزوال تلك الأمة ومآلها إلى الثبور والاندثار*، وهنا نستمع إلى تلك النبوءة المفزعة من هذا الشاعر المحبط (فاروق جويدة):

«أكاد ألمح خلف الغيب كارثة ... وبحر دم على الأشلاء ينهمر
يوماً سيحكى هنا عن أمة هلكت ... لم يبق من أرضها زرع.. ولا ثمر
حقت عليهم من الرحمن لعنته ... فعندما زادهم من فضله.. فجروا
يا فارس الشعر قل للشعر معذرة ... لن يسمع الشعر من بالوحي قد كفروا
واكتب على القبر: هذى أمة رحلت ... لم يبق من أهلها ذكر.. ولا أثر»[(١)]

أما الشاعر (عبدالمنعم عواد يوسف) فإنه يعبر مباشرة عما انتابه من مشاعر الإحباط؛ يقول:

«أتقتلون بعضكم، بلا سبب..
وتنتقون للهيب أجود الحطب..
وكلكم يظن نفسه محمداً..
وكلكم أبولهب..
وتدعون أنكم عرب..
إن كان من أراهمو أمام ناظرى عرب..
فقد كفرت بالعرب..
أجل كفرت بالعرب..»[(٢)].

---

* انظر قصيدة مرثية ما قبل الغروب من الديوان السابق- ص٣٩.

(١) ديوان كانت لنا أوطان- ص٤٨.

(٢) الأعمال الكاملة للشاعر عبدالمنعم عواد يوسف- ٢/ ٤٨٩.

obeikandl.com

انطوت هذه المقطوعة على مشاعر منعمة بالأسى الممض لا يحدها إطار زمني معين؛ فتاريخ نشرها يرجع إلى عام (١٩٧٩). إلا أنها تشف عن رؤية مستقبلية أيضاً؛ فقد صورت ما حدث بين بعض العرب من نزاعات وحروب نشبت بين دول الوطن العربي الواحد؛ مما تسبب فى تمزيق الصف العربى، وإضعاف العرب، واهتزاز صورتهم ومكانتهم وفى تقاعسهم عن مناهضة العدو المشترك؛ لاسترداد الحقوق العربية المغتصبة.

إن حالة كهذه لن تعود على الشاعر بغير مشاعر الإحباط التى ولدت بداخله الرغبة فى التهكم بهؤلاء العرب الذين تنكروا لتاريخهم المجيد فأضاعوه وأضاعوا حقوقهم المشروعة التى اغتصبت وعجزوا عن استرجاعها.

«كذب هو التاريخ يا عرب
كل الذى روجتمو كذب
ما كان عنترة سوى وهم
تمثال زيف؛ إنه حشب
كل الملامح محض تلفقة
دارت بها الأشعار والخطب
لو إنها حدثت كما رويت يوماً،
فكيف الحال ينقلب
إن الحقيقة حين يعوزها
صدق الدليل، فأمرها عجب
من ذا يصدق أننا عرب
وإلى الكرام الصيد ننتسب
من ذا يصدق أننا يوماً
قد شدنا نحو العلا سبب»[1].

(١) الأعمال الكاملة للشاعر عبدالمنعم عواد يوسف- ١/ ٤٥١، ٤٥٢.

لم يجد لهذه الأسئلة الحائرة غير إجابة واحدة بدت على هذا النحو من اليأس والإحباط:

«لا يا أخى ما نحن من كانوا

ذلك الزمان، وكلهم نجب

أو نحن من نسل لهم؟ كلا

أنا لست أحسب أننا عرب»(١).

ولا ينسى الشاعر أن يبرر رؤيته المتشائمة:

«لو أننا عرب لأرجعنا

كل الذى من أرضنا سلبوا

لو أننا عرب لما رضيت

منا النفوس بنهب ما نهبوا

لو أننا عرب لوحدنا

منا الصفوف وللعلا نثب

لو أننا عرب لما نمنا

نوم الكهوف وحالنا عجب»(٢).

إن تكرار الشاعر عبارة (لو أننا عرب) على هذا النحو اللافت للنظر يعكس إحباط الشاعر، ويأسه وتبرؤه من أفعال هؤلاء العرب الذين ارتضوا لأنفسهم القعود عن مناصرة بعضهم البعض، وتفرغوا للتقاتل فيما بينهم، فصارت أرضهم نهباً، وحقوقهم مغتصبة دون أمل فى نخوة تحركهم لاستعادة أمجادهم الغابرة، فقد صاروا رقوداً لا أمل فى استيقاظهم:

«أنا الجثة، المجد كانت

فهل تذكرون الذى كان مجداً، ومات؟

(١) المصدر السابق نفسه- ص٤٥٣.

(٢) السابق نفسه- ص٤٥٤، ٤٥٥.

obeikandl.com

أنا الدوحة، العز عاشت

ولكنها صوحت، واستحالت رفات!

واسمعها ما تزال تغنى،

تحدث عن سالف العهد، أمجادها الغابرات

فغنوا، وغنوا، وغنوا..

وهل نحن نحسن إلا ممارسة الأغنيات

أيا جثثاً حشوها ترهات

أيا جثثاً أكلت ماضياً،

وتأرق فى ليل حاضرها فى انتظار عقيم لما هو آت..

وليس بآت»(١).

هؤلاء العرب لم يعودوا يحسنون غير التغنى بأمجاد أجدادهم الغابرة ظانين أن هذا الغناء وحده سيعيد إليهم ما تسببوا هم فى فقدانه من عزة ومجد وشموخ. إنهم يتخلون عن محاولة القيام بأى فعل إيجابى، ويضعون أنفسهم تحت تصرف السلبية المطلقة التى راحت تحركهم وتتلاعب بهم كيفما شاءت فهوت بهم إلى هوة سحيقة من الضعف والتخاذل:

«السنون العجاف.

أى شىء لنا خلفت للشتاء؟

وسمان البقر،

أجهضت فى الربيع

* عاطل، عاطل، يا زمان النساء..

عبلة ما تزال،

بينها عنترة،

---

(١) المصدر السابق نفسه- ص٢٥٠، ٢٥١.

مات من ألف عام»[1].

أما الشاعر (فاروق شوشة) فقد لجأ فى تصوير انقسام العرب إلى استبطان دخائل هؤلاء العرب الذين يظهرون لبعضهم الود والابتسام، ويتبادلون فيما بينهم أحاديث الأخوة، ويظهرون الود، بينما تنطوى دخائلهم على أحاسيس عدائية يضمرها بعضهم لبعض:

«هل لى أن أقترح الليلة
نخباً تشربه العائلة»
-«حفل لجميع العائلة
اكتمل الشمل»
-«والأعداء الإخوة
يستبقون لهذا الحفل
خناجرهم تحت عمائمهم
وعمائمهم فوق رؤوس يملؤها الغدر
جيوبهمو فوهات بنادق محشوة
يسطع منها وجه شائه
وضراوة أحقاد
طالت
لا تتخلف عن موعدها
فى كل لقاء
انطفأ الضوء
فأهلاً بالظلمة قادمة
والأنياب المسنونة تحتشد لساعة فتك»

(١) المصدر السابق نفسه- ص١٩٩.

-«العائلة، المتآكلة، المتصارعة
على شبر من أرض
أو برميل من نفط
أو قبضة حسك فى صحراء
والمنشغلة عن زلزال فى قلب البيت
جحيم يبتلع الأهل،
وغول يبدل شكل الأرض
ويكسو بالعبرية وجه الكون
ويطمس ذاكرة الأشياء»[1].

إن هؤلاء الإخوة الأعداء منشغلون بصراعاتهم ومنازعاتهم البينية التى ولدتها أنانية ضيقة ألهتهم عن العدو الإسرائيلى المتربص الذى أتى لابتلاع الأرض، والتهامها بما عليها من حياة. وهنا يتساءل الشاعر فى مرارة يائسة: _

«هل يصلح هذا النخب العابر ما أفسده الدهر
وما دشنه الغدر
وأصبح ثأراً يتنزى
وبحار دماء؟
ولماذا حين يثور الأعداء الإخوة
يحتربون،
ويفترسون
البأس الكامن فيهم لا يتجلى
إلا حين يكون عليهم
لكن قلوبهمو شتى

(١) وجه أبنوسى- فاروق شوشة- الهيئة المصرية العامة للكتاب- ٢٠٠٠- ص٧٥-٧٨.

obeikandl.com

إن ندبو يوماً للجلى!

والعقل خواء»[1].

إن الشاعر قد أفصح عن شعوره بالإحباط؛ لعدم صلاحية هؤلاء العرب المتناحرين فيما بينهم «على شبر من أرض أو برميل من نفط أو قبضة حسك»- لخوض غمار مقاومة هذا العدو الرهيب؛ فهم مشغولون بحمل حقائبهم، والتوجه إلى العواصم الخارجية مستعطفين تارة، ومتعهدين تارة أخرى، فى مذلة مهينة، واستكانة ضارعة:

«والأعداء الإخوة..

ترتحل حقائبهم

وتسافر من عاصمة حتى عاصمة أخرى

تستأذن أو تستعطف

ترجو أو تتعهد

تطلب أو تستغفر

لا تحمل، مهما حملت

إلا أشلاء

ونوايا عاجزة

وقلوباً صماً عمياء!»[2].

ثم ينبه الشاعر- فى لفتة بارعة- إلى الأساليب الدنيئة التى انتهجها العدو؛ لإلهاء حكام العرب عن مصالحهم الوطنية الحقيقية، وتوجيههم إلى قتال بعضهم بعضاً بدلاً من مواجهة العدو المشترك الذى يحاول جاهداً إطفاء جذوة الوحدة العربية مستخدماً كل معاول الهدم فى جدارها المتداعى:

«هذا زمن الحفل البازخ

يعمى بالذهب الرنان

(١) السابق نفسه- ص٧٨، ٧٩.

(٢) السابق- ص٧٩، ٨٠.

ويغرى الحمقى بالدولار

ويغوى الموتى بالدينار

ويقتل باثنين:

الرهبة،

والإغواء»[1].

إنها سياسة الترغيب والترهيب، أو سياسة (العصا والجزرة) التى انتهجها أعداء الخارج فى تحويل وجهة حكام العرب من مقاتلة العدو الخارجى الطامع فى أرضهم العربية إلى معاداة بعضهم البعض. لذلك تعددت الخلافات، وتعددت الشروخ، خاصة بعد غزو العراق للكويت- فيما يسمى بحرب الخليج الأولى- وبعد مشاركة مصر وعدد من الدول العربية فى عاصفة الصحراء- أو ما سمى بحرب الخليج الثانية- التى حررت الكويت من قبضة العراقيين. هذه العلل والأدواء قد صارت غائرة مزمنة تستعصى على البرء. لذلك بدا شعور هذا الشاعر بالإحباط عميقاً لتحول هؤلاء (العرب الإخوة) إلى (الإخوة الأعداء):

«هل لى أن أقترح الليلة

نخباً للعائلة

ونخبا لأشقاء كانوا

طلع الفجر عليهم

فانتبهوا..

لكن أعداء!»[2].

إن تمزق الصف العربى، وانهيار وحدته ادى إلى آثار سلبية رهيبة تقف دائماً على خلفية الصراع العربى الإسرائيلى، وعلى جميع جبهات المقاومة ضد العدو الغاشم، يقول الشاعر فى تقديمه- نثراً- لقصيدة الشهيد: «إلى شهداء الجنوب اللبنانى، وحدهم فى

(١) السابق نفسه- ص٨٠.

(٢) السابق نفسه- ص٨٢.

حومة المواجهة مع العدو»[١].

والشاعر خلال تلك القصيدة يقول- مخاطباً هذا الشهيد-:

«يا أيها الوجه الجميل

أيها العمر الذى تقصفت عيدانه

وصوحت أوراقه

وأصبحت ثماره

جماجماً، وأعظما

كيف ارتضيتنا

- نحن القعود، القابعين هاهنا

أبعد ما نكون عن حفائر المنون

واحتدام لحظة القرار

نحتمى بزهونا الرخيص بالحياة

كالدمى-

كيف ارتضيتنا عنك بديلاً

ثم،

وافتديتنا؟»[٢].

إن الشاعر يعجب من حال هذا الشهيد الطاهر الذى فدى بنفسه أبناء العرب الذين قعدوا عن نصرته، والدفاع عنه تجاه عدوهم المشترك.

وفى ظل هذا التمزق العربى لا يقف الأمر بهذا الفدائى عند حد تحسبه لمجابهة العدو الإسرائيلى فحسب، بل إن الخيانة قد تأتى من حيث لا يتوقع؛ فقد تأتى من صديق عميل للعدو:

«وكيف تنام؟

(١) السابق نفسه- ص٨٩.

(٢) المصدر السابق- ص٩٥، ٩٦.

obeikandi.com

وكفك فوق الزناد،
ورأسك مشتعل بالحريق
تشعب سيل الفصائل
وحان شتات القبائل
فكل بواد
وكل ينادى
وكل لغايته فى طريق
فكيف الأكف الشتيتة تهتز كفا
وكيف الصفوف البديدة ترتج صفا
وكيف تنام؟
وأنت تحاذر خطو الرفيق
وهجسَ الشقيق
وحارسك المرتجى.. لا يفيق
وما عدت تدرى
وسيل الرصاص بكل اتجاه
أيأتيك من خائن.. أو صديق!»[1].

إن هذه القصيدة تعيد إلى الأذهان صور الأحداث التى تطورت فى أحيان كثيرة إلى مواجهات مسلحة- وقعت بين أبناء الوطن العربى الواحد كانت نتيجتها تشرذم الصف العربى. ومن ثم تشتيت جهوده، وعجزه عن مواجهة العدو الإسرائيلى الغاشم. وهنا يتوجه شاعرنا إلى الشاعر (أحمد شوقى)؛ ليبثه آلامه وأحزانه التى منى بها بعد ما آل إليه حال العرب من ضعف وهوان وتقاعس. وهى حال شجعت العدو الصهيونى على الظهور والانتصار:

«شوقى .

(١) الأعمال الشعرية- فاروق شوشة- جـ١ - لهيئة المصرية العامة للكتاب - ٢٠٠٤م ص٥٦١، ٥٦٢.

obeikandl.com

الشرق انطفأت فيه الشمس

استأسد فيه بنو الأفعى

وانتصب جدار الخوف

وليل الرعب

فهل نستسلم للأحزان

نهادن ليل الذل

ونعصر عنقوده؟؟»[1].

وقد أجاب هذا الشاعر المحبط عن هذا التساؤل الحائر فى قصيدة أخرى؛ فليس أمامه سوى عصر «عنقود الذل»، وتجرع مرارة مذاقه حتى آخر قطرة حتى تشبع به تماماً فسيطر على كل ما وقعت عليه عيناه، وعلى كل ما تبادر إلى مخيلته من هواجس وتنبؤات:

«أرى عجباً

وفجاءة يوم قريب

أرى سوقة فى لباس الملوك

ملوكاً عروشهم من هواء

وأيامهم حزمة من دماء

وتاريخهم بقعة من هوان

وأحلامهم من لحوم الجوارى

وركضهمو لاقتناص المزيد!

أرى عجباً

ونبوءة يوم قريب

أرى الأفق يمطر مهلا

(١) وجه أبنوسى - فاروق شوشة - ص٤٢، ٤٣.

أرى الأرض تقذف عاراً وذلا

أرى العين تذرف شوكاً ورملا»[1].

كما يلامس الشاعر د/ (محمد العزب) صميم المأساة التى تسببت من اجتياح العراق للكويت، وما تسبب فيه هذا الاجتياح من تسرب مشاعر الأسى إلى القلوب. وهو يحاول أن يضبط مشاعره؛ ليظل حديثه فى إطار إقامة الحجة والإقناع؛ بغية تفادى الأحداث الكارثية التى ستترتب على تلك الحرب العبثية.

لذا يخاطب الرئيس العراقى - الراحل - (صدام حسين)، وذلك بعد أن يعطيه «حقه فى قوله: (المهيب الركن) كأن شيئاً لم يحدث»[2]:

«المهيب الركن:

صدام حسين

قد يكون النفط..

من حقك،

أو من حقهم

لا بأس»

-«أنت تدرى

أن نهر النفط..

لا يقدر أن يصنع حلماً..

باتساع المقلتين!!

أنت تدرى..

أن آلاف البحيرات من النفط..

ولو كانت بحجم الفقد..

لا تقدر..

(١) المصدر السابق نفسه - ص٨٧، ٨٨.

(٢) نبوءات الشعر - دراسة نقدية فى شعر د. محمد أحمد العزب - محمد دياب - ص١٩٨.

أن تنجب طفلاً هارباً فى الأبوين!!

فلماذا نقتل الأطفال عفواً؟

ولماذا..

نحن عصر عربى..

يشتم الصهوة، والصحراء، والسيف،

ويغضى..

مثخن المجداف..

بين الضفتين؟؟»[1].

هكذا أطلت عبارة (نحن عصر عربى)؛ لتشير إلى أن هذا العصر هو عصر التنكر والتجهم فى وجه ماضى الأمة المجيد. وهو عصر العجز والوهن بعد أن ساد هذا العالم العربى سلاطين متآمرون يحكمون الملايين من رعاياهم الذين لا يعرفون غير التبعية العمياء، وأن يصفق لهم:

المهيب الركن:

صدام حسين!!

(عد عن ذكر القداسات،

وعن ذكر العدالات،

وعن ذكر السلالات،

فلا أنت.. -

(على)..

لا..

ولا نحن (الحسين)!!

السلاطين..

(١) الأعمال الشعرية الكاملة شعر د/ محمد أحمد العزب- ص٢٦٩، ٢٧٠.

obeikandl.com

(يزيد.. ويزيد.. ويزيد)!!
والملايين/ التكايا
تتقن التصفيق..
فى عرس..
(يزيد.. ويزيد.. ويزيد)!!
وتغنى..
وهى تبكى..
فوق أنقاض على، والحسين!!»[1].

إن حديث الشاعر مع (صدام حسين) قد بدا على هذا النحو من الهدوء والاتزان الذى دعمه الشاعر بالحجج والبراهين المنطقية. لكن الشاعر قد أخفى وراء ذلك إحباطات وآلاماً مضنية استدعى للتعبير عنها مأساة مقتل سيدنا الحسين ﷺ فى خلافة يزيد بن معاوية بن أبى سفيان). تلك المأساة تجسد صورة من أبشع الصور لنشوب صراع دموى بين فئة عربية مسلمة، وبين فئة عربية مسلمة أخرى. ويبدو أن الشاعر أراد من استحضار تلك الحادثة المأساوية الإشارة إلى الآثار السلبية الفادحة التى أدت إلى سقوط العرب والمسلمين فى أتون حروب أهلية ما زالت تداعياتها بادية حتى اليوم.

إنه نوع من إسقاط الماضى على الحاضر؛ بغية استخلاص العبر، والابتعاد عن الاقتتال الداخلى الذى لن يخلف غير مزيد من التشرذم والتفرق من جديد.

ولكن العرب لا يجيدون الإصغاء، ولا يعتبرون بما جرى. لذا وقع الغزو، وأعقبته تداعيات خطيرة نخرت فى جسد الوطن العربى، ومزقت أوصاله التى كانت أساساً قبل الغزو فى حاجة ماسة إلى ترميم، وإعادة تأهيل. فأتت تلك الحرب لتقضى على ما تبقى من آمال. وهو ما أسلم الشاعر إلى الشعور بالإحباط الذى بدا فى شعره؛ فها هو ذا يستحضر صورة النبى الكريم محمد ﷺ؛ ليبثه آلامه وأحزانه وشكواه مما صار إليه حال العرب والمسلمين من ضعف وتشتت وهوان:

---

(١) المصدر السابق نفسه- ص٢٧٠، ٢٧١.

«أجيئك والحزن ملء اليدين!!

وأندلس الأمس شالى..

ووجه (فلسطين) عارى..

و(لبنان) لون على اللوحتين!!»

-«أجيئك والحزن ملء اليدين

وأعرف أن الخريف خطاى..

وأنك تمنحنى موسمين!!

وأن الهزائم فى..

وأنك سيف قصاصى منى..

ومنهم..

ومن زمن هارب مرتين!!»[1].

لقد أنتجت هذه الحالة المأساوية سخرية مرة صدرت عن هذا الشاعر الذى سيطرت عليه مشاعر الإحباط؛ لما عليه واقع الحكام العرب الذين أداروا ظهورهم للعدو، وتباروا فى مواجهة بعضهم بعضا، ووجهتهم أطماعهم ونظراتهم النفعية الضيقة تجاه ممالأة العدو، والتمسح به:

«من يذكر شكل الآية..

قبل عصور التدوين الأخرى:

(فبأى معونة ربكما فى البنتاجون تكذبان)؟[2].

والذاكرة العربية أدمنت التحريف؟

ارتجل النهد الخطأ..

على الصدر الخطأ

العشاق الخطأ..

(١) المصدر السابق نفسه- ص٢٠٤، ٢٠٥.

(٢) لا أستسيغ هذا التوجه.

حديثاً.. قالوا

(لا تثريب على السيف العربى..

إذا سارية صار..

وصفق للموساد)»[١].

إن هذه الحالة المتردية التى تسربلت بالخزى والعار ستجعل جميع الشعوب العربية فى وضع مكشوف لأعدائهم:

«أما بعد..

فالبعد استقال وقال حكمته الأثيرة:

(ليس فى الإمكان أبدع..)..»

-«هاهو القمر الذى يتجسس استرخى على رمل الخليج

فلم يعد فى الرمل ما يخفيه عنه..

وهاهو (البنتاجون اقترح (المعونة) قبلة أخرى..»[٢].

إن جرأة الشاعر ذهبت به فى صراحة تامة إلى تشخيص الأدواء، وكشف أسبابها الكامنة التى صارت غائرة ومزمنة فى جسد الوطن العربى. وهى عبارة عن الخدع والدسائس التى حاكها العدو بطرق مختلفة، وتحت مسميات عدة، وانطوت على العرب فاستمرءوها واستناموا لها:

«ويكون الحزن..

الحرف التاسع والعشرون..

الآتى من سبت الآلام..

اغتصب حدود اللهجة والإعراب..

وضاجع حبر القاموس..

ونادى بسقوط الفعل..

(١) الأعمال الشعرية الكاملة- د. محمد أحمد العزب- ص٣٢١.

(٢) أتمادى تحت سقف الكتابة- د/ محمد أحمد العزب- ص١٨٣.

obeikandl.com

وقوس حول حوار الأشياء مناجل!!»

ثم يتوسل الشاعر بالشعر طالباً منه تقديم يد العون والإغاثة:

«قبل فوات الفوت..

وقبل طقوس حلول التعتيم الشامل!!!»[1].

هذه القصيدة أنشدت ١٩٨٠م أى قبل اجتياح إسرائيل جنوب لبنان عام ١٩٨٢ وقبل حربى الخليج الأولى والثانية، وهى تلك الحرب التى تدخل فيها عدد من دول العالم (وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية) إضافة إلى عدد من الدول العربية وعلى رأسها (مصر)؛ لتكوين حلف عالمى يخرج العراقيين كرها من أرض (الكويت) التى احتلوها.

إنه إذن عصر «التعتيم الشامل» الذى حذر منه الشاعر قبل وقوعه بحوالى عشر سنوات قد حل ومورست طقوسه فى أبشع صورها قتلاً وتدميراً وإراقة للدماء.

لذلك كان الشعور بالإحباط حليفاً لهذا الشاعر الذى يئس من هؤلاء الحكام المتنازعين العاجزين عن استعادة كرامة العرب الضائعة، ومجدهم البائد الذى لن يعود طالما ظل حال حكام العرب على هذا النحو المخزى من التشرذم:

«أصدق أى ادعاء يقال،

ولكننى لا أصدق..

أن ملوك الطوائف،

ورؤساء العشائر،

يمكن أن يستعيدوا لنا..

عنفوان الصهيل!!

فقد صارت الصهوة العربية..

صندوق أحذية الطغاة،»[2].

(١) انظر الأعمال الشعرية الكاملة- د/ محمد العزب- ص٢٠٠.

(٢) أتمادى تحت سقف الكناية- د/ محمد أحمد العزب- ص٧٨.

انتهى العرب إذن إلى حالة من التشرذم يصعب معها لم شملهم، وتوحيد كلمتهم. وهو ما يعني أنهم وصلوا إلى درجة من الضعف لن يتمكنوا- بموجبها- من الذود عن كرامتهم، ويستحيل معها استعادة حقوقهم المسلوبة، وأرضهم المغتصبة وعلى رأسها بالطبع أرض فلسطين المحتلة.

obeikandl.com